مريم

عناصر الموضوع

التعريف بمريم عليها السلام	٣٥٦
مواضع القصة في القرآن	٣٥٧
أم مريم	٣٦٠
كفالة زكريا عليه السلام	٣٦٣
اصطفاء الله تعالى لمريم	٣٦٥
بشارة مريم	٣٦٨
حمل مريم بعيسى عليهما السلام	٣٧٤
اتهام اليهود لمريم	٣٧٧
نبوة مريم عليها السلام	٣٨١
ضلال بعض طوائف النصارى في مريم	٣٨٣
الدروس المستفادة من قصة مريم	٣٨٥

التعريف بمريم عليها السلام

هي مريم بن عمران، وهو من نسل داود عليه السلام، ويرجع أصله إلى إبراهيم عليه السلام، وكان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه[١].

وكان رجلًا صالحًا، وكانت له زوجة صالحة طيبة طاهرة خيرة تقية وفية مطيعة لزوجها، ومطيعة لربها، « واختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض »[٢].

وذكر ابن كثير نقلًا عن ابن عساكر نسب مريم إلى داود عليه السلام، قال: « ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقوذ بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور، وقيل زوج خالتها أشياع، فالله أعلم»[٣].

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤].

هاتان الآيتان الكريمتان تمهيد للحديث عن مريم رحمها الله، وابنها نبى الله عيسى عليه السلام، وبيان أنه بشر رسول خلقه الله -عز وجل- من أم دون أب كما خلق آدم عليه السلام من غير أب ومن غير أم. وفى ذلك رد على النصارى الذين زعموا كذبا وزورا أن عيسى إله وابن إله، وهاتان الآيتان الكريمتان جزء من الآيات التى نزلت لترد على كثير من مزاعم النصارى، وذلك أن وفدًا من نصارى نجران جاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى المدينة فأحسن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استقبالهم وأكرم نزلهم ودار حوار بينه وبينهم أقام فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حججا ظاهرة وأدلة دامغة تدحض مزاعمهم وتدل على فساد معتقداتهم، وأنزل الله تعالى فى هذا الشأن صدر سورة آل عمران[٤].

وآل عمران من الذين اصطفاهم الله، وهم من آل إبراهيم، وخصوا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام، تشريفًا وتكريمًا، وتمهيدا للحديث عنهم بشيء من التفصيل.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٨.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٥٨.
(٣) البداية والنهاية ٢/ ٥٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٨، السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٥٨.

مواضع القصة في القرآن

وردت قصة مريم الصديقة رضي الله عنها في سور كثيرة ولمناسبات متعددة نذكر منها ما يلي:

في سورة آل عمران: ورد الحديث عنها في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام وبيان أنه بَشَرٌ رَسُولٌ خلقه الله -عز وجل- من غير أب، كما خلق آدم من غير أب ولا أُمٍّ.

قال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

وعيسى عليه السلام فرعٌ طيب من شجرة طيبة مباركة، فأمه مريم رضي الله عنها خير نساء العالمين، اصطفاها الله تعالى وطهرها وآثرها وأنعم عليها بنعم كثيرة وأكرمها بكرامات ظاهرة، وأمها امرأة صالحة صادقة وفية تقية، نذرت حملها لله تعالى محررا فتقبل الله منها نذرها.

وأبوها عمران -عليه السلام- العابد والحبر الزاهد صاحب المكانة السامية في قلوب العباد المخلصين الذين تسابقوا وتنافسوا على كفالة مريم -رضي الله عنها- تقربا إلى الله تعالى، ووفاء وعرفانا وبرا وإحسانا إلى معلمهم وإمامهم عمران عليه السلام الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية ابنته مريم رضي الله عنها، التي خلدت ذكره في العالمين، وسميت هذه السورة بهذا الاسم تكريما لعمران عليه السلام ولأصله الطاهر ولذريته الصالحة الطيبة.

ويأتي ذكر جانب آخر من قصة مريم رضي الله عنها في سورة تحمل اسمها تكريما لها وهي سورة مريم التي ورد فيها الحديث عن مجيء جبريل -عليه السلام- لها في صورة بشرية وهي في خلوتها تعبد الله عز وجل، واستعاذتها بالله -تعالى- منه، وإخباره إياها بحقيقته ومهمته التي كلفه الله بها والتي جاء من أجلها، وتعجبها من تلك البشارة العجيبة وجواب جبريل -عليه السلام- على استفهامها التعجبي، ونفخه فيها وحملها بعيسى عليه السلام ومدة الحمل وساعة المخاض، تلك الساعة العصيبة العسيرة التي مرت بمريم النذيرة، والتي تمنت الموت من شدة ما مر بها، ومولد عيسى عليه السلام، وما صحبه من رحمات ونفحات وإرهاصات، وقدوم مريم إلى قومها ومعها وليدها عيسى عليه السلام وموقفهم من ذلك ونطق عيسى عليه السلام وهو في المهد.

وتأتي إشارة لمريم في سورة المائدة فيها منقبة عظيمة لها.

قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

فذكر الله تعالى صفة كريمة من صفات مريم وهي الصدق، والصديقية مقام من أسمى المقامات، فالنبوة أعظم درجات الكمال في الرجال، والصديقية تأتي في المرتبة الثانية بعد النبوة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

وفي سورة الأنبياء يرد ذكرها رضي الله عنها وابنها نبي الله عيسى عليه السلام في سياق الحديث عن نعم الله عز وجل ورحمته بأنبيائه وأصفيائه.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال صاحب الظلال: « ولا يذكر هنا اسم مريم؛ لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها عيسى عليه السلام، وقد جاءت تبعا له في السياق، وإنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أحصنته فصانته من كل مباشرة والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية؛ لأن الزواج يُحَصِّنُ من الوقوع في الفاحشة، أما هنا فيذكر في معناه الأصيل وهو الحفظ والصون أصلا من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية، وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به اليهود »[(١)].

كما يأتي ذكرها رضي الله عنها في سورة المؤمنون مع ابنها نبي الله عيسى عليه السلام في سياق الحديث عن رحمة الله بأنبيائه وعنايته بهم وحفظه لهم.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

جعلهما الله آية للناس تدل على قدرته تعالى ورعايته لأنبيائه وأوليائه، وآواهما إلى ﴿رَبْوَةٍ﴾: مكان مرتفع من الأرض، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستوية وصالحة للعيش عليها وذات خصب، وماء طيب جارٍ تراه العيون، وهو بيت المقدس[(٢)].

ويتكرر ذكرها أيضا في سورة التحريم مع آسية بنت مزاحم كمثل طيب ونموذج رائع،

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٨.

وصورة مشرقة متألقة للمرأة الصالحة الصادقة المؤمنة المحسنة التقية النقية، بعد أن ضرب الله تعالى مثلا للمرأة الكافرة فيكون ذكرها وقبلها آسية رضي الله عنهما مسك الختام لهذه السورة الكريمة التي استفتحت بالحديث عن أمهات المؤمنين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٠ - ١٢].

أم مريم

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

بدأت قصة مريم رضي الله عنها في بيت صالح هو بيت أبيها عمران ذلك التقى النقي الذي أكرمه الله عز وجل بزوجة طيبة صالحة، وكان من نتاج هذا الزواج المبارك ومن ثمراته الطيبة: مريم رضي الله عنها، ربيبة بيت الطهر والعفاف وسليلة آل العلم والعبادة.

وكانت امرأة عمران رضي الله عنها تدعو المولى عز وجل أن يرزقها ولدا ذكرا تقر به عينها وتبتهج به نفسها وينشرح له صدرها، فلما تحرك الحمل في أحشائها نذرت ما في بطنها محررًا أي خالصا لوجه الله تعالى منقطعا لعبادته وخدمة بيت المقدس، أملا ورجاء أن توهب ذكرا يحمل اسم زوجها عمران ويخلفه في الفضل.

طلبت امرأة عمران أن يتقبل المولى عز وجل نذرها ويقبل نذيرها قبولا حسنا.

أولًا: حملها ونذرها

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

أجاب الله دعاء امرأة عمران، تلك المرأة الصابرة الصادقة الصالحة التي توجهت إلى المولى عز وجل بالدعاء والرجاء أن يرزقها الولد الصالح، فاستجاب الله لها، وآتاها سؤلها، فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها، فأشرقت الدنيا في عينها وغمرتها وزوجها نشوة من السرور.

فالبنون قرة العيون، وثمرة الفؤاد، وبهجة النفوس وريحانة القلوب وفلذات الأكباد.

ولكن لم تطل فرحتها ولم تتم بهجتها فلقد مات زوجها عمران عليه السلام، وقد كانت تتمنى بقاء زوجها حتى ينعم برؤية فلذة كبده وتكتحل عيناه برؤية ولده، ويشاركها فرحتها، ولكن قضاء الله حل، ولقد استقبلت هذه الأمور بالصبر الجميل، والإيمان واليقين، فلما تحرك الحمل فى أحشائها نذرت ما فى بطنها محررا أى خالصا لوجه الله تعالى منقطعا لعبادته، والمحرر هو الخالص ومنه: الذهب الحر: أى الخالص من الشوائب، وطلبت امرأة عمران أن يتقبل المولى عز وجل نذرها ويقبل نذيرها قبولا حسنا، فهو تعالى سميع لقولها مجيب لدعائها وتضرعها عالم

بحالها ونيتها[1].

ثانيًا: وضعها ووفاؤها بنذرها

ومضت الأيام وجاءت ساعة الوضع، ووضعت امرأة عمران وليدها فإذ به أنثى، فتبادر إلى الاعتذار لربها، لأنها كانت ترجو أن يكون المولود ذكرا لتهبه لخدمة بيت المقدس كما نذرت، والأنثى لا تصلح لهذه المهمة، كما جرت العادة بذلك، فتوجهت امرأة عمران إلى ربها قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال ابن كثير: « وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداما من أولادهم»[2].

أدركت امرأة عمران أن لله في ذلك حكمة يعلمها، فالله -عز وجل- يدبر أحوال الخلق وفق قدرته وإرادته وعلمه وحكمته، ولعل هذه الأنثى عند الله خير من الذكر؛ لأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه، فهو سبحانه لا يقع في سلطانه إلا ما أراده، لكن المولى جل وعلا يعلم مكانة هذه المولودة وقدرها، فهي سيدة نساء العالمين، اصطفاها الله وطهرها، واجتباها وآثرها، وجعلها وابنها آية للعالمين.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٦.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٤٩.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: قالت امرأة عمران معتذرةً لربها: وليس الذكر الذي طلبته ونذرته كالأنثى التي وضعتها، فالذكر يتمكن من الوفاء بالنذر بخدمته في المسجد، أما الأنثى فإنها لا تقدر على القيام بما يقوم به الذكر، كما أنه يعتريها من الأحوال ما يَحُوْلُ بينها وبين البقاء في المسجد، وذلك حين يأتيها الحيض، أو النفاس عند الولادة، فضلا عن تفاوتهما في القوة والجلد.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ انفردت امرأة عمران بتسمية مريم وما ذلك إلا لوفاة زوجها عمران عليه السلام أثناء حملها، وسمتها مريم تقربا إلى المولى عز وجل بهذه التسمية الحسنة، فمريم -رضي الله عنها- تعنى في لغتهم: العابدة والخادمة، وللاسم علاقته بالمسمى، فهي ترجو أن يكون لها حظ وافر من اسمها[3].

وفي هذه التسمية إشارة إلى عزمها على إمضاء نذرها، ورجائها أن يكون عند الله مقبولا.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: تضرعت امرأة عمران لربها أن

(٣) قال القاسمي في محاسن التأويل ٤/ ٩١: قال المفسرون هي في لغتهم بمعنى العابدة، سمتها بذلك رجاء وتفاؤلا أن يكون فعلها مطابقا لاسمها.
وقال ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٥٤١: (مريم) بالسريانية تعني: الخادم.

يقبل وليدتها ويجعلها مباركة، ويحفظها من الشيطان الرجيم، فالمولى عز وجل خير حافظ، وهو سبحانه أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين.

وسر تكرار ﴿إِنِّي﴾ هنا للتأكيد، ولتغير المخبر به، ولأنه قد يشعر كلامها السابق أنها كارهة لما جاءها، فأكدت في كلامها هذا؛ إظهارا لرضاها بما قدر الله تعالى، ولذلك انتقلت للدعاء لها الدال على الرضا والمحبة [1] ولقد جاءت أفعال ثلاثة بصيغة الماضي ﴿نَذَرْتُ﴾ ﴿وَضَعْتُهَا﴾، ﴿سَمَّيْتُهَا﴾ للدلالة على التحقق والثبوت وفي التعبير بـ ﴿نَذَرْتُ﴾ و ﴿سَمَّيْتُهَا﴾ ما يفيد عزمها ومضيها على الوفاء بما نذرت به بلا تردد ولا تراجع، وفي التعبير بـ ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا﴾ ما يدل على التجدد والاستمرار المستفاد من التعبير بالفعل المضارع، لأن الاستعاذة مطلوبة في كل وقت وحين [2].

ثالثًا: تقبل الله تعالى نذرها

بعد هذه المناجاة الصادقة، والدعوات الخالصة من امرأة عمران رضي الله عنها والتي طلبت من ربها أن يتقبل منها نذيرها، وأن يبارك لها في وليدتها ويعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم، أجاب الله لها الدعاء وحقق لها الرجاء، وكانت الإجابات الإلهية والنفحات الربانية والمواهب اللدنية التي تنتظر هذه الوليدة السعيدة، حيث تقبلها ربها قبولا حسنا، وأنبتها نباتا حسنا حتى نمت وترعرعت وأزهرت وأينعت، وأثمرت كلمة من الله وروحا منه هو عبد الله ونبيه عيسى عليه السلام، الذي جعله الله وأمه آية للعالمين.

قال عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ والفاء هنا للتعقيب، لبيان سرعة استجابة المولى عز وجل لدعائها وسرعة تحقيقه لرجائها، فهو عز وجل من المؤمن قريب ولدعائه مجيب.

وقال ﴿بِقَبُولٍ﴾ ولم يقل (بتقبل)؛ «للجمع بين الأمرين: التقبل الذى هو الترقى فى القبول، والقبول الذى يقتضي الرضا والإثابة» [3]، هذا مع معهود القرآن الكريم في عذوبة الألفاظ وسلاستها.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: مع قبولها عند الله قبولا حسنا، فقد أكرمها الله وأنعم عليها بأن أنبتها نباتا حسنا، فجمعت بين كمال الخلقة وجمال الخلق، وحسن التربية.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣٤.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٣٦.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٢.

كفالة زكريا عليه السلام

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧-٤١].

قيض الله تعالى لمريم نبيه زكريا عليه السلام ليتعهدها ويرعاها، ويعنى بأمرها ويهتم بإصلاحها، فكان كفالته لها نعمة من الله ورحمة، وقد تمت تلك الكفالة بتوفيق من الله عز وجل بعد أن تنافس الأحبار والرهبان وتنازعوا على كفالة مريم، كلٌ يرجو ويطلب لنفسه أن ينال هذا الشرف وأن يحظى بذاك المقام، فمريم -رضي الله عنها- بنت إمامهم ومعلمهم عمران عليه السلام الرجل الصالح الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية ابنته، وحرصًا على هذا الشرف، ووفاء للمعلم والمربي والمصلح، وكان تنافسهم وتسابقهم الذي وصل إلى حد النزاع والاختصام على كفالة مريم رضي الله عنها.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ فلقد كان كل واحد منهم شديد الحرص على كفالة تلك اليتيمة، ولما لم تجتمع لهم كلمة، ولم يتفق لهم رأي، فكل واحد يريد أن يستأثر بهذه المكرمة، وكان أولى بهم أن يتركوا كفالتها لنبي الله زكريا عليه السلام، ولما طال جدالهم حول من يكفلها اتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم، فمن فاز في القرعة فقد فاز بكفالة مريم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، قال ابن عباس اقترعوا فجرت الأقلام مع الجرية وعال قلم زكريا الجرية فكفلها زكريا [1].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ لم يحمله إليها، ولا هو مما يعهد في هذا الوقت من الزمن، وهو يعلم أنه لا يدخل عليها غيره؛ فهو القائم على كفالتها، حتى أثار ذلك الأمر دهشته وعجبه، وهذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات ٢/ ٩٥٣.

الرزق الرباني يشمل غذاء الأجساد وغذاء الأرواح، فهو يشمل الطعام والشراب، وغير ذلك من ضرورات الحياة، من كل ما ينتفع به الإنسان وما يحصله، كما أنه يشمل: غذاء الأرواح من علم وغيره، فهو أعم من الفاكهة في غير حينها المعهود؛ ولذلك جاء بصيغة التنكير التي تفيد التعظيم والتعميم والتكثير، فهو رزق حسي ورزق معنوي، وهذا الرزق كرامة من سلسلة الكرامات التي أظهرها الله لمريم، وتمهيدًا للآية العجيبة التي تنتظرها، وهي خلق عيسى عليه السلام من غير أب، فالكرامة تكريم لها وتشريف وتمهيد وإعداد لها، حتى تكون مهيأة لما ينتظرها من كرامة.

﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

سأل زكريا مريم متعجبًا ومنبهرًا بما يقع لها، سألها وقال لها من أين لك هذا؟ وكيف وصل إليك ولا يدخل عليك غيري؟

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فعطاء الله ممدود، لا تحده حدود، ولا تقيده قيود، وفضل الله عظيم وخزائنه ملأى، فالله سبحانه يعطي العبد من حيث لا يحتسب العبد.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: نبي الله زكريا عليه السلام بلغ من الكبر عتيًّا، وزوجه كانت لا تلد، فأسلمت أمرها لله ورضيت بقضاء الله، وعاشت مع زوجها حياة هادئة هانئة، ولقد أكرم المولى عز وجل زكريا عليه السلام بإكرامه لمريم تلك اليتيمة صاحبة المنزلة العظيمة، وكانت تلك الكرامة التي حدثت لمريم سببًا مباشرًا في توجه زكريا عليه السلام إلى الله ودعائه بأن يرزقه ذرية طيبة.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الوقت الذي رأى فيه الفاكهة في غير حينها، تعلق رجاؤه بقدرة الله ورحمته ولطفه أن يرزقه الولد في غير حينه، تقر به عينه، وينشرح به صدره ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩].

اصطفاء الله تعالى لمريم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

عودٌ إلى مريم رحمها الله وإلى اصطفاء الله، عز وجل لها، (وإذ) معطوف على ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ﴾ والمعنى: اذكر يا محمد إذ قالت امرأة عمران رحمها الله واذكر أيضا ما قالته الملائكة لمريم رحمها الله من بشارات، ففي هذه القصة عبر وعظات ينبغي أن يتذكرها المؤمن، ويستفيد منها، ويذكر الناس بها.

والاصطفاء: الاختيار والانتقاء والتصفية.

ومعنى اصطفاء الله تعالى مريم رضي الله عنها: جعلها من بيت صالح، وقبلها قبولا حسنًا، وأنبتها نباتًا حسنًا، وجعل زكريا عليه السلام لها كافلًا، وأجرى الكرامة على يديها إكرامًا لها وإحسانًا إليها، وطهرها من كل سوءٍ، طهرها بالإيمان والطاعة والتقى والصلاح، والحياء والعفاف، فهي رضي الله عنها العفيفة الشريفة الحيية النقية الراضية المرضية، واصطفاها تعالى اصطفاءً خاصًّا بأن أكرمها بهذه المعجزة العظيمة والآية العجيبة، حيث وهبها عيسى عليه السلام المخلوق بقدرة الله عز وجل من غير أبٍ ليكون آيةً للعالمين[1].

وطهرك: من الأدناس والأقذار، ونزهك عن الأخلاق الذميمة والطباع الرديئة بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة، ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾: اصطفاء بعد اصطفاء، والاصطفاء الثاني هو أنه عز وجل أكرمها بهذه المعجزة العظيمة والآية العجيبة، حيث وهبها عيسى عليه السلام المخلوق بقدرة الله عز وجل من غير أبٍ ليكون آية للعالمين[2].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقيل: إن الاصطفاء الثاني هو عين الأول، وكرر للتأكيد وبيان من اصطفاها عليهن، ذكر ذلك الألوسي، وقال: ولعل الأول أولى؛ لما أنَّ التأسيس خير من التأكيد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٣، روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ٣٢، روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٣ روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٦.

(حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد)[1].

مقتضيات الاصطفاء: قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

بعد هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أكرم المولى عز وجل بها مريم: يأمرها سبحانه - عن طريق خطاب الملائكة الكرام لها - بأن تجتهد في العبادة شكرًا لله عز وجل على هذه النعم والمواهب؛ ومواصلةً للسير في طريق الهدى والصلاح.

قال الرازي: «لما بين تعالى أنها مخصوصة بمزيد المواهب والعطايا من الله تعالى، أوجب عليها مزيدًا من الطاعات شكرًا لتلك النعم السنية»[2].

والقنوت لزوم الطاعة والعبادة والاجتهاد فيها مع الإخلاص والخشوع والخضوع لله رب العالمين[3].

وقال الألوسي: «والتعرض لعنوان الربوبية؛ للإشعار بعلة وجوب الامتثال لأوامره سبحانه»[4].

وتكرير النداء ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ للتنبيه، والإشارة إلى أهمية ما يرد في ثناياه وفيه تكريم لها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: إن حملنا القنوت على مطلق الطاعة والعبادة، فالسجود والركوع من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية والاهتمام، وإن حملنا القنوت على القيام، فالركوع والسجود من تتمة الأركان؛ لأن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود، وإن حملنا القنوت على الإخلاص وعلى الخشوع والخضوع، فالركوع والسجود من الأفعال الظاهرة، والإخلاص والخشوع والخضوع من الأفعال الباطنة، ولا تستقيم العبادة إلا بصحة الظاهر وصلاح الباطن.

وفي هذا توجيه لمريم رضي الله عنها أن تجمع بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح، حتى يستوي الظاهر بالباطن، ويستقيم الاعتقاد مع القول والعمل.

والآية الكريمة أمر من المولى عز وجل لمريم رضي الله عنها أن تجتهد في العبادة وأن تداوم على الطاعة وتطيل في القنوت، وتكثر السجود وتركع مع الراكعين؛ حتى تزداد قربًا من رب العالمين.

وجاء التعبير بـ ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولم يقل مع الراكعات « لأن هذا الجمع أعم، إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب فضل خديجة، ٥/ ٦٦٠، رقم ٣٨٧٨. قال الترمذي: حديث صحيح.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٤.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ٤١٣.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٨.

التغليب، ولمناسبة رؤوس الآي»[1].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: ذلك: إشارة إلى ما سبق ذكره من أخبار عن اصطفاء الله للأنبياء وخبر امرأة عمران وابنتها، وخبر زكريا ويحيى عليهما السلام، وغير ذلك من الأخبار التي جاءت بها السورة الكريمة.

إن كثيرًا من الأحداث الهامة في حياة مريم رضي الله عنها لم نعرفها إلا عن طريق القرآن الكريم، من ذلك حديث القرآن عن حمل أمها بها ونذرها للعبادة، و تنافس الأحبار على كفالتها، وكفالة زكريا لها، واصطفاء الله تعالى لها، وغير ذلك من مآثرها التي لم نعرفها إلا عن طريق القرآن، إذ لم يرد لهذه الأحداث ذكر في العهد الجديد.

ولم يرد في « العهد الجديد » أيضًا كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، مع كونه آية عظيمة وحجة ساطعة على براءة مريم رضي الله عنها مما ادعاه اليهود.

بل إن أغلب الذي في العهد الجديد عن مريم فيه تقليل من شأنها وتجاهل لكراماتها، من ذلك على سبيل المثال:

❁ في إنجيل مرقس إصحاح ٣: ٣١/ ٣٥ ما يفيد تجاهل المسيح لمريم وإخوته وفيه: «وجاء حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجًا، وأرسلوا إليه يدعونه، وكان الجميع جالسا حوله، فقالوا له: هوذا أمك وإخوتك خارجا يطلبونك ؟ فأجابهم قائلا من أمي وإخوتي ؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أمي وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي » ٠ وورد فى إنجيل لوقا إصحاح ٨/ ١٩، ٢٠ نفس الموقف ويلاحظ من كلمة: من أمى وإخوتى ؟ مدى تجاهله لأمه وإخوته وضيقه بهم ٠

❁ في إنجيل مرقس إصحاح ٦: ٢/ ٥: «ولما كان السبت ابتدأ يعلم فى المجمع، وكثيرون إذ سمعوا بهتوا قائلين من أين لهذا هذه؟ وما هذه الحكمة التى أعطيت له؟ ... أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويهوذا وسمعان؟ فكانوا يعثرون به، فقال لهم يسوع: ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وبين أقربائه وفى بيته، ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة ٠ وفى عرس قانا الجليل كما ورد فى إنجيل يوحنا ما يدل على انفعال المسيح على أمه وفيه». وفي اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل وكانت أم يسوع

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٨.

هناك، ودعي أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس، ولمافرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر؟ فقال: لها ما لي ولك يا امرأة ؟ لم تأت ساعتى بعد » يوحنا ٢: ١/ ٥ ٠ فهل يتفق هذا مع أخلاق النبوة ؟ إن كل هذه الأخبار كاذبة خاطئة، والمسيح عليه السلام كان بارًا بأمه رفيقًا بها محسنًا إليها.

❁ قال تعالى مبينًا ما قاله عيسى عليه السلام عن نفسه وهو فى المهد.

إن ما ورد فى الأناجيل فى شأن عيسى عليه السلام وفى شأن مريم متضارب متناقض، بعيد عن الحقيقة، منحرف عن الصواب، حتى شراح الأناجيل قد أصابتهم الحيرة ووقعوا فى أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل، وقصة يوسف النجار قصة متضاربة متناقضة مدسوسة ومكذوبة، وليس له أي صلة بمريم عليها السلام.

بشارة مريم

جاءت البشارات في سورتين: سورة آل عمران وسورة مريم، جاء الحديث عن البشارة مسهبًا في سورة آل عمران، وجاءت سورة مريم مفصلة لما لابس البشارة وما أعقبها، وفيما يلي أتحدث عن البشارة في السورتين الكريمتين:

أولًا: البشارة في سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٧].

بعد أن اصطفى الله عز وجل مريم رضي الله عنها، وطهرها وأمرها بالاجتهاد في العبادة والمداومة على الطاعة، وأوصاها بالإخلاص والخشوع والخضوع له سبحانه، تهيأت بذلك مريم رضي الله عنها للمعجزة الكبرى والآية العجاب، وهي حملها بعيسى عليه السلام على خلاف العادة بدون أبٍ.

وكما بشرتها الملائكة بأنها المصطفاة الطاهرة جاءتها بشارة أخرى وهي أن المولى عز وجل اصطفاها لتلك المهمة

العظيمة الشأن.

« والمراد بالملائكة هنا جبريل، والجمع لما ذكرنا قبل من التعظيم» [١].

ولا مانع من تكرار البشارة، بشرتها الملائكة أولًا وعلى رأسهم جبريل، ثم تمثل جبريل عليه السلام فى صورة بشرية فأعاد بشارتها فأعادت تعجبها؛ زيادة فى الاطمئنان واليقين واستفسارًا عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة.

سمى المسيح كلمة الله لأنه موجود بكلمة كن، وكل ما في الكون موجود بأمر الله وكلمته، وإنما خص بهذا الاسم للتنويه بهذه الآية العجيبة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

ذكر ذلك الإمام الألوسى، ورجح أن المسيح سمي بكلمة الله؛ لأنه وجد من غير أبٍ بكلمة كن على خلاف أفراد بنى آدم، فكان تأثير الكلمة فى حقه أظهر وأكمل [٢].

ومعنى المسيح: المبارك [٣].

وقيل: سمي المسيح؛ لأنه كان يمسح على عين الأعمى فيرتد بصيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله.

وقيل: يعني الصديق.

وقيل: سمي بذلك؛ لأنه ممسوح بالزيت المبارك الذى كانت الأنبياء من قبله تمسح به، وهو زيت طيب الرائحة.

وقيل: المسيح يعني: من مسحه الله؛ أي: خلقه خلقًا حسنًا مباركًا، كما يقولون به مسحة جمال، والمسيخ: من مسخه الله، أي: خلقه فى صورة قبيحة وجعله ملعونًا [٤].

وقيل: لكثرة سياحته، أي :سيره فى الأرض.

وقيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما [٥].

وقيل: المسيح يعني: المبارك، أو لأنه كان يمسح بيده المباركة على المريض فيشفى بإذن الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ إشارة إلى أن عيسى عليه السلام سيولد من غير أبٍ، لأنه لو ولد من أبٍ لصرح باسمه بدلًا من التصريح باسم أمه.

والوجيه: ذو الجاه والشرف والقدر.

وقيل: الكريم على من يسأله فلا يرد لكرم وجهه عنده، خلاف من يبذل وجهه للمسألة فيرد، ووجاهته فى الدنيا بالنبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة بقبول شفاعته وعلو درجته.

وقيل: وجاهته فى الدنيا بقبول دعائه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣٤.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٦٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٣.

وقيل: بسبب أنه كان مبرءًا من العيوب التى افتراها اليهود عليه، وفي الآخرة ما تقدم »[1].

وتعرض له اليهود بالأذى والاضطهاد لا ينقص من قدره ولا يقدح فى وجاهته ومنزلته، فالأنبياء هم أشرف خلق الله، وأكرمهم وأعزهم، وقد تعرضوا للأذى والتضييق، فلم يزدهم ذلك إلا عزة ورفعة، وكرامة وإباء، وعزيمة ومضاء، وإيمانًا وتسليمًا ويقينًا وتثبيتًا ونصرًا ونجاة.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى وعند الناس بالقبول والإجابة، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كلامه فى المهد حين أنطقه الله عز وجل ببراءة أمه من اتهام اليهود عليهم لعنة الله.

والكهولة فى الأربعين. وقيل: ثلاث وثلاثين، والكهل ما اجتمعت قوته وكمل شبابه[2]، أما عن كلامه فى الكهولة: فقيل: ذكر هنا لتبشير أمه بأنه سيبلغ مبلغ الرجال، وقيل: لبيان فصاحة كلامه وبلاغته فى المهد وفى الكهولة على السواء، وقيل: إشارة إلى أنه سيرفع إلى السماء ثم ينزل إلى الأرض فى آخر الزمان فيكلم الناس، وقد بلغ سن الكهولة[3].

و قيل: رد على النصارى الذين زعموا أنه إله، والإله لا يمر بهذه التقلبات، ولا ينتقل من حال إلى حال، والمسيح سينتقل من حال الطفولة إلى حال الكهولة، والمتنقل من حال إلى حال حادث ومتغير، والحدوث والتغير يتنافى مع صفة الألوهية، ومن فوائد كلامه فى المهد: إثبات براءة أمه، وبيان عبوديته لله ونبوته وبركته وبره بأمه، ونفي كونه جبارًا شقيًا، فهو برٌّ رحيمٌ رفيقٌ حليم •

قالت مريم رحمها الله متعجبة من هذه البشارة العجيبة، ومتسائلة عن كيفية وقوعها: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ وجاءها الجواب: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قال صاحب الظلال: « وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التى يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة، لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب، ويعود الإنسان إلى نفسه يسألها فى عجب: كيف عجبت من هذا الأمر الفطرى !!

وهكذا القرآن الكريم ينشئ التصور الإسلامى لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب، وهكذا كان يجلو الشبهات التى تعقدها الفلسفات المعقدة،

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٦٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٥١.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٦٣.

ويقر الأمر في القلوب وفي العقول على السواء»[1].

ثم تمضي الآيات بعد ذلك في سورة آل عمران لتواصل الحديث عن صفات المسيح عليه السلام ونعم الله عليه وتأييده له بالمعجزات التي تدل على نبوته، كما تدل على بشريته، وعن حقيقة رسالته التي جاء بها، ويطوي السياق الحديث عن مريم رحمها الله، وينتقل للحديث عن المسيح ابن مريم وعن موقف الناس من دعوته •

ثانيًا: البشارة في سورة مريم:

ورد الحديث عن البشارة ومقدماتها، وما تبعها في سورة مريم.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾[مريم: ١٦-٢١].

بعد أن تحدث المولى عز وجل عن زكريا عليه السلام وكمال عبوديته لله تعالى، وكيف رزقه الله عز وجل، الولد مع كبر سنه وعقم زوجته، يتحدث المولى عز وجل عن خلقه عيسى بدون أبٍ، فالقصة الأولى بمثابة التمهيد للقصة الثانية، وإذا كان مولد يحيى آيةً عجيبة فإن ولادة عيسى آيةٌ عجاب.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾[مريم: ١٦-١٧].

اذكر في القرآن الكريم؛ لأن القصص القرآني هو الزاد الذي يتزود به المؤمن في حياته والنور الذي يضيء له الدروب، ومن ثم فلا بد من دوام التأمل والتدبر في القصص القرآني والاعتبار به، والاقتباس من أنوار الأنبياء والصديقين، وفي ذكر مريم في هذا السجل الخالد تشريف وتكريمٌ لها.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ اتجهت إلى شرقي بيت المقدس لتعتكف وتخلو للعبادة، ففي الخلوة رياضة للنفس، وسمو بالروح، وشحذ للهمة، وصفاء للقلب، وزيادة قرب من المولى عز وجل.

وإنما جاءها الملك في هذا المكان الطاهر المبارك كما جاء لزكريا عليه السلام وهو قائم يصلى في المحراب، حيث البركات والرحمات والنفحات، ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾: أي: جعلت

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٨.

بينها وبينهم سترًا حتى لا يشغلها شيء عن العبادة، وحتى تستأنس بالحق عن الخلق، وينصرف قلبها للعبادة، ولا تختلط بالرجال، ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبريل عليه السلام، وسمي عليه السلام روحًا؛ لأن الدين أساسه الوحي، وهو أمينه، فبالوحي حياة الدين، كما يحيا الجسد بالروح وكما تحيا الأرض بالماء.

والإضافة في ﴿رُوحَنَا﴾ للتشريف والتعظيم، وبيان أن جبريل عليه السلام مرسل من قبل رب العالمين منزلٌ بأمره، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾: ظهر لها جبريل عليه السلام في صورة جميلة وهيئة حسنة؛ لكنها بادرت إلى اللجوء والاعتصام بالله تعالى، مخاطبة في هذا الذي قطع عليها خلوتها تقواه، وإنما تمثل لها عليه السلام بهذه الصورة لتستأنس به ولا تنفر منه، ولأنها لا تطيق رؤيته عليه السلام بصورته الطبيعية.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾: استعاذت رضي الله عنها بربها من ذلك الذي قطع عليها خلوتها ودخل بغير إذن، وفي استعاذتها بالله تعالى ما يدل على كمال إيمانها، وورعها وتمام عفافها، وشدة حيائها وحسن أدبها، ولباقتها وسرعة بديهتها، وفي استعاذتها بالرحمن توجهٌ إليه سبحانه أن يرحم ضعفها ويصرف عنها السوء، فقد شملها تعالى برحمته في سائر أحوالها، وهي الآن أحوج إلى أن تداركها رحمة الرحمن، وفي الاستعاذة أيضا استثارة واستنهاض لبواعث الرحمة والتقوى في قلب ذلك القادم، فهو إن كان رحيمًا فسوف يرحم ضعفها ووحدتها، وإن كان تقيًّا فسوف ينصرف عنها ولا يمسها بسوء.

قال أبو العالية : «قد علمت أن التقى ذو نهية[1]»[2].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾: بادر جبريل عليه السلام إلى إزالة خوفها، ووضح لها أنه ملكٌ من ملائكة الرحمن، جاء بأمر من عنده سبحانه ليهب لها غلاما زكيًّا، أي غلامًا طاهرًا مباركًا «وعبر باسم الرب المتقضي للإحسان لطفًا بها، ولأن هذه السورة مصدرة بالرحمة، ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده»[3].

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: علمت وأيقنت أن هذه البشارة صادقة، وأن الذي بين يديها ملكٌ مرسل من عند الله، ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة؛ لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا

(١) أي: ذو عقل وانتهاء عن فعل القبيح.
انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٦٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٥.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٢٧.

عن حملٍ، وهي رضي الله عنها لم يمسسها بشرٌ بزواج، وحاشاها أن تكون بغيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغية، ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فالمولى عز وجل هو القادر، وقدرته مطلقة وإرادته نافذة، لا يحدها حدود ولا تقيدها قيود، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق حواء من آدم: قادر على خلق عيسى من أم دون أب.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ دلالة وعلامة وحجة وبرهان على قدرة الله عز وجل كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ رحمة من الله عز وجل لمريم، ولكل من آمن برسالته عليه السلام، فهو رحمة لمريم؛ لأنه إكرام لها من الله واصطفاء لها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة الفريدة، ورحمة لها؛ لأنها صارت به أم نبيٍ له وجاهته ومكانته في الدنيا والآخرة، ورحمة لكل من آمن به، فالأنبياء جميعهم رحمةٌ مهداةٌ، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أمرًا مقدورًا من الله عز وجل ونافذًا فلا رجوع فيه.

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس عليه السلام في مريم، وجاء الحديث عن النفخ في سورة الأنبياء وسورة التحريم، وفي ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية، فكل آية لها سياقها الذى يتنظم مع سابقها ولاحقها، وكل آية لها صلتها بموضوع السورة، ولها اتصالها بالسياق العام للقرآن الكريم.

في سورة الأنبياء قال المولى عز وجل: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

والآية الأولى في سياق الحديث عن نعم الله عز وجل ورحمته بالأنبياء وآلهم، وفيها بيان لما كانت عليه مريم من العفة والطهارة، وأن الله عز وجل قد أرسل إليها جبريل، فنفخ فيها لتحمل بولد من غير أب، لتكون وابنها آية للعالمين.

وفى سورة التحريم تلك السورة التى تعالج بعض الأمور التى حدثت فى بيت النبوة، بين أمهات المؤمنين، يوضح المولى عز وجل أن قرابة النسب لا تغنى عن قرابة الدين، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح.

ومريم بنت عمران نشأت فى بيت صالح، وكانت عفيفة شريفة، مؤمنة صديقة، اختارها المولى عز وجل لتكون وابنها آية للعالمين.

قال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

حمل مريم بعيسى عليهما السلام

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٢-٢٣].

سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، ونفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام، فاتجهت بحملها بعيدًا عن قومها، وكان حملها طبيعيًّا كما تحمل سائر النساء، حملته إلى مكان بعيد عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء، وهذا المكان القصي هو شرقي بيت لحم، حيث ولد المسيح عليه السلام.

كما ورد في الحديث الذي رواه النسائي في السنن والبيهقي في دلائل النبوة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث الإسراء، وفيه قال صلى الله عليه وسلم **(ثم قال: انزل فصل، فنزلت فصليت، فقال أتدري أين صليت ؟ صليت ببيت لحمٍ؛ حيث ولد عيسى عليه السلام)** [1].

وفي صلاته صلى الله عليه وسلم في هذه البقعة المباركة التي شهدت ولادة نبي الله عيسى تكريمٌ لهذا النبي.

والظاهر المتبادر من سياق الآيات أنها

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة، رقم ٤٤٦.

وضعته في المكان القصي الذي انتبذت إليه أو قريبًا منه، وقد كانت في هذا المكان وحيدةً فريدةً[1].

قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

ومعنى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: ألجأها المخاض واضطرها، والمخاض: ما يرافق الولادة من جهد وإعياء وآلام وزفرات، والجذع: ساق النخلة اليابسة الذي لا سعف عليه ولا غصن له، حيث أسندت ظهرها إليه.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ تمنت لو أنها قد ماتت، قبل هذا الموقف العصيب، وكانت نسيًا منسيًّا، أي: شيئا لا يعتد به ولا يؤبه له، من شأنه أن ينسى فلا يذكر، ولكن كيف تمنت ذلك مع ما علمت من البشارة والكرامة ؟

عن ذلك يجيب المفسرون بأجوبة كثيرة ومتنوعة: فيقول ابن كثير في التفسير « فيه دليلٌ على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون صورة سيئة فقالت ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي: لم أخلق ولم أك شيئا، قال ابن عباس قالت ذلك استحياء من الناس»[2].

وفي حاشية الجمل على الجلالين «تمنت الموت من جهة الدين، إذ خافت أن يظن بها السوء في دينها، أو استحياءً من الناس فأنساها الاستحياء بشارة الملائكة لها بعيسى عليه السلام، أو لعلها قالت ذلك: لئلا تقع المصيبة بمن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بشرت به، فلا يرد السؤال كيف تمنت الموت مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث لها جبريل عليه السلام، ووعدها بأن يجعلها وولدها آية للعالمين»[3].

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[مريم: ٢٤-٢٦].

في غمرة الآلام التي ألمت بمريم رضي الله عنها، وفي تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض ومخاطره، والوحدة والوحشة والترقب لما

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٦.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٣/ ٥٧.

ينتظرها من قومها حين يرون هذا الوليد، في غمرة هذه الآلام الحسية والنفسية تغمرها رحمة الله تعالى، فيتحول العسر إلى يسر والضيق إلى سعة، والحزن والقلق إلى فرح واستبشار وطمأنينة، ويولد عيسى عليه السلام في جوٍّ من الكرامات، وينطقه[1] المولى عز وجل.

وقال لها كما أخبر القرآن: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، أنطق الله عيسى عليه السلام تسلية لأمه وتثبيتًا لقلبها، وتمهيدًا لها إلى أنه كما نطق أمامها وحدها فسوف ينطق أمام قومها ببراءتها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٢٩-٣٠].

ولقد أجرى الله هذه المعجزة أمامها وحدها، ثم أجراها بعد ذلك أمام قومها، كما أجرى الله معجزة قلب العصا إلى حية أمام موسى وحده، قبل أن يجريها أمام فرعون وملئه؛ تثبيتًا لموسى عليه السلام وإعدادًا له لمواجهة هذا الموقف.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ السري: قيل: هو الجدول - النهر الصغير الجاري - سمي بذلك لأن الماء يسري فيه، وعلى هذا القول عامة المفسرين[2].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٠٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٢٢١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٧، ومفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٠٥.

ولعل إيثار تسميته هنا «سريا» لما فيه من تسرية لقلبها، وترويح عن نفسها وتسليةٍ لها وهي في هذا الكرب والمحنة.

والسياق يدل على ذلك، قال تعالى: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ فدل الأكل على وجود الرطب، ودل الشرب على وجود الماء الذي جاء عن طريق ذلك الماء الجاري، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ﴿سَرِيًّا﴾: الجدول، نهرٌ صغيرٌ بالسريانية[3].

وقد أجرى لها المولى عز وجل هذا النهر كرامةً لها، وإرهاصًا لعيسى عليه السلام، وتسليةً لقلبها.

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥]. نعمة أخرى ونفحة كبرى لمريم رضي الله عنها، أن يأتيها رزقها من الرطب وهي في مكانها، بقدرة الله عز وجل ولطفه ورحمته، وكانت تلك النخلة يابسةً فاخضرت وأثمرت في غير أوانها؛ كرامة لمريم وتسلية لقلبها وزيادةً في يقينها، وإظهارًا لقدرة الله عز وجل وعجيب صنعه[4].

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٥.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٦٥.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾، كلي من ذلك الرطب الجني واشربي من ذلك الماء العذب، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: وطيبي نفسًا بهذه الآيات وتلك الكرامات، واهتئي بالًا بهذا المولود المبارك الذي صاحب مولده تلك النفحات.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦] أُمرت بالصوم عن الكلام لأمرين:

أحدهما: أن كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى.

والثاني: أن السكوت عن جدال السفهاء أصون للعرض وأنسب لحيائها.

اتهام اليهود لمريم

قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم ٢٧- ٢٩].

قال القرطبي: « لما اطمأنت لما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه »[1].

والفاء هنا في (فأتت) تفيد التعقيب، والسرعة، وهناك مفارقة عجيبة في هذه القصة ففي بدايتها ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وفي نهاية المطاف ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾.

ففي الموضع الأول نرى مريم البتول رضي الله عنها تسارع بحملها بعيدًا عن قومها، خوفًا من نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة وظنهم السيِّئ وكلامهم الجارح حين يرونها وهي حامل.

وفي الموضع الثاني بعد أن وضعت المسيح وقرت عينها به، واطمأن قلبها إليه، وانشرح صدرها بالكرامات التي وقعت لها، وامتلأ قلبها يقينا، وتبدل خوفها أمنًا، وحزنها سرورًا وضعفها قوة وعزة وترفعًا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٩٩.

وتحديًا وتعاليًا على الباطل وأهله، فجاءت إلى قومها يحملها اليقين ويحدوها الأمل ويقودها الإيمان، وهي تحمل وليدها الحبيب نبي الله عيسى عليه السلام، جاءت بنفس راضية هانئة بهذه الهدية التي منحها لها رب البرية.

لقد أصبحت مريم أمًّا لنبي، وأي شرف لأمٍّ أعظم من ذلك، وأي رجاء أعظم من نجابة الولد واستقامته، ومع ذلك فإنها تعرف سلفا موقف قومها، الذين يقابلون الآيات بالإنكار والجحود، والإنعامات بالحسد والحقد، وقد صدق ظنها فيهم حين رأوها فقالوا دون تفكر أو تمهل -كما أخبر القرآن الكريم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾: أي: شيئًا فظيعًا منكرًا عجيبًا.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾: بعد أن اتهموها، وافتروا عليها، قالوا لها هذه المقولة على سبيل السخرية والتهكم والتشكيك والتحريض.

قالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ تشبيهًا لها: بهارون النبي أخي موسى عليهما السلام في تقواه وصلاحه وحيائه، وكانوا يسمون وينعتون بأنبيائهم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

قال: لما قدمت نجران سألوني: فقالوا: إنكم تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم ٢٨].

وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال: (إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم)»[1].

والظاهر أن هذه الآية العجيبة التي بهتت اليهود لم تزجر كثيرًا منهم ولم تكفهم عن التمادي في الافتراء والكذب على مريم البتول، فكان هذا من أسباب غضب الله عليهم وعقوبتهم الدنيوية مع ما ينتظرهم يوم القيامة، وأي ذنبٍ بعد الكفر بالله، والافتراء على أنبيائه الكرام الأخيار، وآلهم الطيبين الأبرار، سيما من برأها الله تعالى بآيةٍ مشاهدةٍ محسوسة، وسجَّلَ براءتها في كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٦].

فتلك صفحاتٌ مطويةٌ في تاريخ اليهود وجرائم مسجلة عليهم، منها: نقض المواثيق مع جلالها، والجحد بآيات الله مع جلائها، وقتلهم الأنبياء خيرة الخلق، بدون جريرةٍ ولا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء، رقم ٢١٣٥.

حق. ومن كفرهم البواح وظلمهم العظيم افتراؤهم على خير نساء العالمين الصديقة العابدة التقية الطاهرة مريم بنت عمران التي نبتت من أرومة مجدٍ طاب غراسها، ودرجت في بيت صلاح وتقى شَعَّتْ أنواره، وتقبلها ربها بأحسن قبول ظهرت بركاته وجلت آثاره، وكان كافلها ومعلمها نبيٌّ كريمٌ مبجل، وانقطعت للعبادة والتبتل، ورغم ذلك فقد اتهمها اليهود في عرضها، وغمزوها في عفافها، وهي الصديقة التي بلغت معالي الرتب والدرجات، الطاهرة التي برأها ربها بأعظم الآيات وأبلغ البينات، فأنطق ولدها في المهد، وشهد لها بالطهر والمجد، وفند كذب اليهود وبهتانهم الذي ليس له حد.

وتكرر الكفر منهم لأنه كفرٌ بعد كفر بعد كفر حجبٌ كثيفة وغيوم قاتمة وقلوب تراكم عليها الظلام، كفروا بموسى ثم كفروا بعيسى، فقد دخلوا إلى الكفر من أبوابٍ كثيرة، فقد كفروا بالأنبياء بل وقتلوهم، وشنعوا على مريم وتآمروا على ولدها عيسى عليه السلام.

وعطف البهتان على الكفر دليلٌ على شناعته وقبحه، ووصفه بالعظيم لتهويله، إذ أي بهتان أعظم من رمي سيدة نساء العالمين الصديقة العابدة سليلة بيت الطهر والعفاف ربيبة أهل التقى والصلاح، نذيرة العبادة، وراهبة المحراب!

إنه ابتلاءٌ عظيمٌ أن يرمي الغوغاء ذات الطهر والنقاء، وهل أشد على الحرائر العفيفات، المحصنات الغافلات من الاتهام في أغلى ما يملكن.

كلام المسيح عليه السلام في المهد تبرئة لأمه مما اتهمت به:

قال تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

نطق عيسى عليه السلام وهو في المهد بقدرة الواحد الأحد، نطق أول ما نطق بأنه عبد الله وفي هذا تنزيهٌ لله تعالى عن الصاحبة والولد، وردٌّ على النصارى الذين زعموا أنه إله وابن إله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

قال الرازي في هذا المقام: « إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت إنما هو نفي التهمة عن مريم، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وإنما نص على إثبات عبوديته لله كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها، لأن التكلم

بإزالة التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم، لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة، وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم فلا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى »[1].

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾: فنطق عليه السلام أول ما نطق بغاية وجوده وكمال إنسانيته في عبوديته لله تعالى، وأجل نعم الله عليه الكتاب والنبوة، وهي اصطفاء خاصٌ، ومنزلة عظيمة، ومكانة عالية، لا تكون إلا لأشرف وأكرم وأطهر خلق الله، فنبوته عليه السلام دليل على براءة أمه، لأن الأنبياء من أطهر الناس نسبا، والمراد بالكتاب الإنجيل الذي أنزله الله عليه، أو التوراة التي علمه الله إياه.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ نفاعا حيث كنت، وقيل: معلما للخير، وقيل: ثابتا في الدين، صاحب عزم ويقين، وقيل: البركة هي الزيادة والعلو، فكأنه قال جعلني في جميع الأشياء غالبا موفقا إلى أن يكرمني الله بالرفع إلى السماء[2]، والمقصود من كلامه: باعتبار ما سيكون، إخبارٌ عما قدره الله تعالى له، فهو في حكم الواقع المحقق لأنه سيقع بإذن الله[3].

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أوصاه بها حين يقدر على القيام بها، والصلاة والزكاة لا تجب إلا بعد البلوغ، وإن كانت تصح قبل ذلك، فأوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة، مدة حياتي في هذه الدنيا أي فأنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها منفذ لها.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي: جعلني المولى عز وجل بارًا بأمي، رفيقًا بها، محسنًا إليها، وفي ذلك بيان لنزاهتها وبراءتها من افتراء اليهود عليها، واستحقاقها للبر والإحسان، وردٌ على ما جاء في الأناجيل من ادعاء جفوته وغلظته في معاملتها وتنكره لها ونفوره منها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني متجبرًا متكبرًا على الحق والخلق بل جعلني برًا رحيمًا، عطوفًا كريمًا، متواضعًا للحق، مطيعًا لأوامر الله عز وجل.

وبهذه الصفات التي تحلى بها عيسى عليه السلام استحق السعادة في الدنيا والآخرة واستحق السلام من المولى عز وجل في الدنيا والآخرة.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ومروره بهذه الأطوار، وتقلبه في هذه الأدوار ميلاد ثم ممات ثم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٠٩.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ١٦/ ٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢١٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٢١.

بعث: دليل على حدوثه وبشريته، فالإله لا يتغير ولا يتحول، والإله الحق لا يفتقر لغيره، ولا يحتاج إلى من سواه.

نبوة مريم عليها السلام

زعم بعض أهل العلم أن مريم عليها السلام نبية من الأنبياء، لأن الله عز وجل أوحى إليها، ومن الذين قالوا بهذا: الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي، الذي عقد فصلا في كتابه الفصل بعنوان (نبوءة النساء): ادعى فيه ثبوت نبوءة النساء ومن كلامه في ذلك: « جاء في القرآن أن الله عز وجل قد أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، من ذلك تبشير الملائكة لأم إسحاق به.

قال عز وجل: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: ٧١].

فهذا خطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم عليها السلام فخاطبها وقال لها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: ١٩].

فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح، ورسالة من الله تعالى إليها، وهكذا أم موسى أوحى الله تعالى إليها أن تلقي موسى في اليم، وأنه سوف يعيده، ويجعل له شأنًا.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧]»[1].

ومن القائلين بنبوة مريم أيضا الإمام القرطبي في تفسيره حيث يقول: «والصحيح أن مريم نبية؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة ملك، كما أوحى إلى سائر الأنبياء»[2].

وقال القرطبي إن مريم أفضل النساء على الإطلاق؛ لأنها نبية والنبي أفضل من الولي، فهي أفضل من كل النساء: الأولين والآخرين مطلقًا[3].

وقال أيضًا: ومن قال لم تكن نبية قال: إن رؤيتها للملك كما رؤي جبريل عليه السلام في صورة بشرية حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء. والأول أظهر، وعليه الأكثر. والله أعلم[4].

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ «يجوز أن تكون صديقة مع كونها نبية كإدريس عليه السلام»[5].

والصحيح في هذه المسألة أن مريم عليها السلام ليست نبية وإنما هي صديقة، والدليل على ذلك ما يلي:

١. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾، فهذا دليلٌ صريحٌ على أن النبوة في الرجال دون النساء.

٢. أن مريم وأم إسحاق وأم موسى لم يأت في القرآن تصريح بنبوتهن ضمن من صرح الله بنبوتهم.

٣. أن كلام الملائكة لمريم عليها السلام لا يعد دليلا على ثبوت نبوتها، إذ النبوة هي وحى من الله تعالى لنبي من الأنبياء بكيفية مخصوصة، وبواسطة الملك، كما أن كلام جبريل لها لم يكن برسالة أو نبوة بمفهومها الشرعي وإنما كان بأمر من الله تعالى وبشارة منه سبحانه وكلام الملائكة لأم إسحاق لم يكن إلا بشارة لها، والحكمة في الكلام المباشر أن البشارة تعظم في النفس بعظم المبشر بها.

٤. أن الإلهام كما يقع للأنبياء فقد يقع للأولياء، ويكون في حقهم كرامة وليس بمعجزة، والرؤيا الصالحة نوع من أنواع الوحي (الإلهامي) ولم يقل أحد أن كل من رأى رؤيا صالحة فهو نبي.

٥. أن الوحي بمعناه الأعم: إعلام الله تعالى، جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ولم يقل أحد أنه نبوة.

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ٥/ ١٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٨٤.
(٥) المصدر السابق.

قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨]. ولم يقل أحد من العقلاء بنبوة الأرض والسماء ولا بنبوة النحل، إذ أن الوحي بمفهومه اللغوي العام أوسع من معناه الشرعي المخصوص: إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بواسطة أو بغير واسطة.

٦. هذا ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة وصفها بالنبوة، وإنما جاء وصفها بأوصاف أخرى تدل على صلاحها وطهرها وصديقيتها. قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

ضلال بعض طوائف النصارى في مريم

بلغ غلو بعض طوائف النصارى في مريم إلى عبادتها والاستغاثة بها والتوسل بها والصلاة لها.

يقول ول ديورانت: « كانت تشير عبادة مريم العذراء في العصور الوسطى إلى ما كان لها من التبجيل وقتذاك »[١].

وفي موضع آخر يقول: بل إن العابد التقي في بلاد البحر الأبيض المتوسط في هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الإبن[٢].

وفي موضع آخر يذكر « ذلك أن سيريل كبير أساقفة الإسكندرية وصف في موعظة له شهيرة ألقاها في إفسس عام ٤٣١، مريم بكثير من العبارات التي كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها «إلهتهم الكبرى» أرتميس - ديانا دلالة على حبهم إياها »[٣].

وقد بين القرآن الكريم أنها عابدةٌ قانتةٌ لله تعالى، مستسلمةٌ لقضائه راضيةٌ بحكمه، وأنها بلغت منازل الصديقين، بصدقها واجتهادها في العبادة.

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ

(١) قصة الحضارة ١/ ٤٨٢.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٤٥٣.
(٣) المصدر السابق ١٦/ ٤٤١.

ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾﴾.

فالمسيح عليه السلام بشرٌ رسولٌ، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولو أراد الله أن يهلكه وأمه ومن في الأرض جميعا فلا يملك أحدٌ من الخلق أمرًا، وكل ما في السموات والأرض ملكٌ لله تعالى وتحت قدرته تعالى، لا يقدر أحدٌ من المخلوقين أن يدفع عن نفسه ضرًا أراده الله، فضلا عن أن يدفع عن غيره ما حل به، وفي هذا ردٌ لمن زعم ألوهية مريم أو أضفى عليها شيئا من الخصائص أو الصفات الإلهية.

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

فبين الله تعالى القول الحق في المسيح عليه السلام وهو أنه بشرٌ رسول، ونسبته لمريم، لأنه لا أب له، ولو كان له أبٌ لنسب إليه، وإنما خلقه الله بلا أبٍ لحكمةٍ بالغةٍ، تدل على كمال قدرته تعالى، وبديع صنعه، وعيسى عليه السلام بشرٌ رسولٌ، شأنه شأن من سبقه من الرسل، أرسله الله على نهجهم وأقامه على سننهم، وأمه صديقةٌ عابدةٌ، كانا يأكلان الطعام، والحاجة للطعام والشراب غريزةٌ إنسانيةٌ، أما الإله فهو غنيٌ قويٌ، ليس كمثله شيء، فكيف يدعون أنه إله أو ابن إله ! فتأمل كيف يقيم الله الحجة عليهم من وجوهٍ عديدةٍ ثم هم يصرفون عن الحق، ويقلبون الحقائق ويقرون الأباطيل ! مع جلاء الآيات وتصريفها !

الدروس المستفادة من قصة مريم

- في تخصيص آل عمران بالذكر وعطف على آل إبراهيم وهم منهم اعتناء بهم وزيادة تشريف لهم وتوطئة للحديث عن أم مريم ومريم وعيسى عليه السلام.
- ضرب القرآن الكريم أمثلةً رائعة للمرأة الصالحة، وصور بأبلغ بيان مشاهد وصورا في حياة المرأة وهي في حملها وعند مخاضها وعند رعايتها لصغيرها، وهذا يدل على احتفاء القرآن بالأم ورعاية الإسلام للأمومة.
- قال الشيخ السعدي: « ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤبدة لكفى بذلك فضلا. »[1]
- دور الأم في تربية الأبناء وبركة الدعاة للأبناء بالصلاح.
- رعاية الولد تبدأ مبكرة منذ أن يتحرك في أحشاء أمه بل تبدأ باختيار الأم الصالحة، قال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: لقد أحسنت إليكم صغارا، وأحسنت إليكم كبارا، وقبل أن تولدوا، قالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ فقال: اخترت لكم أما صالحة[2].
- استحباب النذر ووجوب الوفاء به وبركته.
- حرص المؤمن على تقبل عمله، بتحري أسباب القبول.
- قول أم مريم: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: خالصا لوجهك، مخلصا لطاعتك وعبادتك، عن مجاهد قال: « إن المحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى »[3]، وفي هذا منقبةٌ لمريم حيث نذرتها أمها خالصة للعبادة، فكأنما حررت من أسر الدنيا وقيودها[4]. وفي هذا بيان للمفهوم الصحيح للتحرر أنه التجرد لله تعالى من كل الأهواء، والتحرر من كل قيدٍ يحول بين العبد وبين ربه، أما التحرر الذي يدعو إليه أعداء الإنسانية فهو دعوة مشبوهة ودعوى زائفة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٨.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٩٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٦٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣٢.

وشعارات براقة خداعة، تعنى التحرر من كل فضيلة، والتمرغ في أوحال الرذيلة، وتحطيم القيم والأخلاق الكريمة والهجوم الشرس على دين الإسلام وتعاليمه القويمة.

- حسن التأدب مع الله تعالى في الدعاء والتوسل بالعمل الصالح وبأسماء الله الحسنى وصفاته العلى.
- الصدق مع الله تعالى وإمضاء العزم وعلو الهمة.
- الحرص على صلاح الأولاد ونفعهم لدينهم وقومهم.
- بيان أهمية العامل الوراثي وأثره الفعال في تكوين الشخصية والطباع.
- قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ إشارةٌ لكون « الأنثى ليست كالذكر في تركيبها الجسمي، ولا في تركيبها النفسي، ومن ثم فلابد أن تكون وظيفتها تختلف عن وظيفة الذكر، ولا بد أن يترتب على ذلك اختلاف في المسئوليات واختلاف في الحقوق والواجبات، ومن أراد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء: فليسو بينهما في التركيب الجسمي والنفسي أولًا ! »[1]. وقد أثبت العلم أن هناك فروقا كثيرة عضوية ونفسية بين الرجل والمرأة، وهى فروق كثيرة ومتعددة.
- تحري الأسماء الحسنة العذبة من حق الولد على أبيه، ومن أسباب البركة والصلاح.
- في هذه الدعوة التي توجهت بها امرأة عمران لربها إشارة إلى حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها بنتها ويرعاها حتى تشب وتكبر وتكون لها ذرية ولقد استجاب الله تعالى لها. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال: **ما من بني آدم مولودٌ إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها**) ثم قال أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ »[2].
- حرص الأبوين على تجنيب الذرية كل وساوس الشيطان ونزغاته.
- الغراس الطيب في التربة الطيبة مع تعهده بالرعاية يثمر نبتًا طيبًا مباركًا نافعًا.
- رعاية الله تعالى لأنبيائه وأوليائه وذرياتهم.
- قال البقاعي: « ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ جاء بصيغة التفعل مطابقة لقولها: (فتقبل)، وفيه

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٢/ ٧٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٥.

إشعار بتدريج وتطور وتكثر، كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه، من حيث لم يكن فاقبل مني فلم تكن إجابته: فقبلها، فيكون إعطاء واحدًا منقطعًا عن التواصل والتتابع، فلا تزال بركة تحريرها متجددًا لها في نفسها وعائدًا بركته على أمها حتى تترقى»[1].

- وفي ذكر الفعل من (أفعل) في قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾ والاسم من (فعل) في قوله: ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾ إعلام بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثير وحسن الأثر، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسنًا. انتهى[2].
- لزوم مريم الصديقة للمحراب دليل كمالها وعلو همتها وصدقها مع الله تعالى.
- رد على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وصفوة خلقه مع فساد اعتقادهم وسوء أخلاقهم وعدائهم للحق ومخالفتهم لما جاء به الأنبياء عليه السلام.
- توجيه وإرشاد إلى وجوب اتباع الأنبياء والاقتداء بهم والسير على طريقهم ففيه الصلاح والفلاح.
- حرص الأحبار من بني إسرائيل على كفالة مريم وتنافسهم على ذلك دليل حرصهم على نيل الأجر والثواب، فمريم بنت إمامهم ومعلمهم، وهي طفلة يتيمة تحتاج إلى يد كريمة وإلى قلب عطوف، يقودها إلى بر الأمان، ولقد حثنا الإسلام على كفالة اليتيم، وأمر بإصلاح شأنه والمحافظة على ماله، وتنميته، حتى يبلغ سن الرشد.
- قال أبو حيان: « و(كلما): تقتضي التكرار، فيدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها[3].
- اليتيم ليس في حاجة للطعام والشرب والملبس والمأوى فحسب بل في حاجة إلى رعاية نفسية وإلى رعاية تربوية وعلمية وقد ظهر ذلك في كفالة زكريا عليه السلام لمريم.
- قال الإمام القرطبي رحمه الله: استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظنة عمن يتولى قسمتهم

(١) نظم الدرر ٢/ ٧٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البحر المحيط ٢/ ٣٣٦.

ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد؛ إتباعا للكتاب والسنة » [1].

- وقوع الكرامات للأولياء؛ فهذا الرزق الذي ساقه المولى عز وجل لمريم بغير حساب وبهذا الأمر العجاب كرامة لها، والكرامة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مدع للرسالة، وهى مأخوذة من الكرم والإكرام؛ لأنها كرم وجود من المولى عز وجل، وإكرام لصاحبها وتكريم له، قال الإمام الطحاوى رحمه الله: « ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات فى رواياتهم. » [2].
- إعداد الله تعالى لأنبيائه وأوليائه لما يهيئهم له من جلائل الأمور.
- يجوز تمني الموت عند وقوع الفتن واشتداد المحن، وخوف المؤمن على نفسه من الافتتان.
- بركة رعاية الصالحين وتفقد أحوالهم.
- اصطفاء مريم على سائر نساء العالمين منقبة لها لم ترد في الأناجيل المحرفة، حيث تفرد القرآن بذكر أمور كثيرة ومناقب عديدة للصديقة مريم لم ترد في كتب النصارى.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٦.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، شرح ابن أبي العز ص٤٩٥.

- أمر القرآن بذكر مريم الصديقة ومدارسة قصتها العجيبة ومآثرها الماجدة، فلقد ضربت أروع الأمثلة في الطهر والعفاف والعبادة والصبر والثبات والفصاحة والحصافة والحياء والحشمة واليقين والمعرفة قال السعدي رحمه الله: « وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل» [3].
- حسن بديهة مريم وحسن تصرفها وحكمتها ورزانتها وحصانتها وثباتها وأدبها وحسن ظنها وثقتها بربها، تجلى ذلك حينما دخل عليها جبريل عليه السلام خلوتها فقالت كلماتها القيمة.
- قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية لئلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها [4].
- قال أبو حيان: « ودل على عفافها

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩١.
(٤) المصدر السابق.

وورعها أنها تعوذت به من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبر لعفتها[1].

- آلام المخاض وأثره البدني والنفسي على المرأة، وحاجتها إلى لطف وأنسٍ وهي في أصعب الأوقات.
- يأتي الفرج بعد اشتداد الكرب ويأتي اللطف وتهب نسائم الرحمات عند الابتلاءات.
- الإعراض عن السفهاء ومجانبتهم، وكراهة مجاراتهم.
- الابتلاء سنة الله تعالى في الأنبياء والأصفياء.
- الله تعالى يتولى الدفاع عن أنبيائه وأوليائه.
- الافتراء وسوء الظن بالأنبياء والصالحين من طباع اليهود والمنافقين.
- بلغ قوم مريم من السفاهة مبلغا عظيما حتى رموها وهي الطاهرة العفيفة بما هي بريئة منه، ومع ذلك فإنها امتنعت عن الكلام، وفي ذلك إشارة إلى الإعراض عن السفهاء وعدم مجاراتهم في سفههم.
- بر عيسى عليه السلام بأمه دليل طهرها وصدقها، وردٌ على ما ورد في الأناجيل مما يدل على جفائه.
- التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب، ومريم رضي الله عنها كان رزقها يأتيها من عند الله، ولما جاءت ساعة المخاض أمرها الله عز وجل أن تهز النخلة أخذا بالأسباب.
- قال ابن عطية: «وقد استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه لأنه أمرت مريم بهز الجذع لترى آية وكانت الآية تكون بأن لا تهز هي»[2].
- أكل مريم رحمها الله من الرطب إشارة إلى ما أثبته الطب من أهمية الرطب للمرأة النفساء.
- وردت قصة مريم في سورة تحمل اسمها وأخرى تحمل اسم أبيها عمران، وسورة الأنبياء، وسورة التحريم التي استفتحت بذكر أمهات المؤمنين، وختمت بذكر سيدة نساء العالمين آسية ومريم، وذكرها في سورة الأنبياء في سياق رعاية الله تعالى لأنبيائه عطفا على ولدها المسيح عليه السلام بيان لمكانة مريم في القرآن، وعظمة القرآن ورفعته وتسامح الإسلام وشموله وعالميته، وأن القرآن امتداد للكتب

(١) البحر المحيط ٦/ ١٣٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٤.

السابقة المنزلة، ونبينا محمدا صلى الله عليه وسلم حلقة أخيرة في سلسلة الأنبياء عليهم السلام وامتداد لهم.

- التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حيا عاقلا، ومهما بلغ مقامه عند الله، وفى ذلك رد على بعض المتصوفة، الذين قالوا بسقوط التكليف عن العبد عند بلوغه درجة معينة.
- عن كلام المسيح في المهد قال الألوسي: « وذكر عبوديته لله تعالى أولًا: لأن الاعتراف بذلك على ما قيل هو أول مقامات السالكين، وفيه رد على من يزعم ربوبيته وفى جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء والله سبحانه أجل من أن يصطفي ولد الزنا، وذلك من المسلمات عندهم، وفيه من إجلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح، وقيل: لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة »[1].

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، زكريا عليه السلام، عيسى عليه السلام، النساء

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٨٩.